

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام

عناصر الموضوع

١٦٢ التعريف بإبراهيم عليه السلام

١٦٤ ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

١٦٥ مكانة إبراهيم عليه السلام

١٧٣ صفاته وأخلاقه عليه السلام

١٨٤ دعوته عليه السلام

١٩٣ حاجته عليه السلام لقومه ولملك

١٩٦ إبراهيم عليه السلام والبيت الحرام

٢٠١ إبراهيم وذريته عليهم السلام

٢٠٧ الدروس المستفادة من قصة إبراهيم

التعريف بإبراهيم عليه السلام

أولاً: اسمه ونسبه:

ورد ذكر نسب نبي الله إبراهيم عليه السلام في موضعين من كتابه -جل وعلا-، وفي كل موضع كان ذكره باعتبار خاص، وذلك كما يلي:

الموضع الأول: جاء على سبيل التشريف وذلك في سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

وفي هاتين الآيتين ذكر اصطفاء الله للأنبياء المذكورين على العالمين بالنبوة، وأخير أنهم يرجعون لأصل واحد، فآل عمران من إبراهيم، وإبراهيم من نوح، ونوح من آدم، فآدم أبو البشر الأول، وهو الذي خلقه الله بيده، وأسجد له الملائكة، ونوح هو أبو البشر الثاني، وهو أطول الأنبياء عمراً، قضاه في تبليغ دين الله، وإبراهيم أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وصاحب الهجرات العديدة لله، في سبيل إعمار الأرض بعبادة الله وتوحيده كما سيأتي، فهم ذرية طيبة بعضها من بعض عليهم السلام.

الموضع الثاني: جاء في سورة الأنعام، وهو على سبيل ذكر النسب من حيث الأصل وفرعه، وأن إبراهيم هو ابن آزر الذي هو تاريخ كما هو عند جمهور المفسرين وعلماء الأنساب، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا وَاللَّهُ إِلَٰهِي أَرَأَيْتَ وَقَوْمَكَ فِي صَلَاتٍ مِّمَّيْنٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

هذا ما ورد في القرآن، أما ما ورد في كتب التاريخ والأنساب، فقد جاء ذاكراً للأباء بين آزر ونوح زيادة على ما جاء في القرآن على النحو التالي:

هو إبراهيم نبي الله عليه السلام ابن آزر واسمه تاريخ بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، لا يختلف جمهور أهل النسب، ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء^(١).

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١/١٦٠، تاج العروس، الزبيدي، ٣١/٢٨٠.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ذكر الإمام الطبري في تاريخه أماكن كثيرة ذكرها أهل العلم من أن مولد سيدنا إبراهيم عليه السلام كان فيها، غير أنها في مجملها تبين أن ميلاده كان في أرض العراق، وقد كان النمرود هو حاكمها، وكان اسمه زرهي بن طهما سفان^(١)، وقد ظهر ملكه وملك قومه بالمشرق قبل ملك فارس، وبلغ فيما ذكره أهل التاريخ مشارق الأرض ومغاربها، ونسب الطبري في أثر عن بعض الصحابة، ولم يسمهم، أن النمرود بن كنعان هو أول ملوك الأرض شرقها وغربها، وأن الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، ويختصر: مؤمنان وكافران^(٢).

والنمرود هو الذي جاء ذكره في القرآن في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي رَبْوَةٍ أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ١/ ٢٣٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٣٤.

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم (٦٩) مرة، في (٢٥) سورة. وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	١٢٥-١٢٧، ٢٥٨، ٢٦٠
الأنعام	٧٤-٨٠
هود	٦٩-٧٥
مريم	٤١-٥٠
الحج	٢٦-٢٩
العنكبوت	١٦-١٨، ٣١-٣٢
الزخرف	٢٦-٢٨
الذاريات	٢٤-٣٧
الممتحنة	٤

مكانة إبراهيم عليه السلام

منزلة نبي الله إبراهيم عليه السلام بين الأنبياء:

أما عن منزلته بين الأنبياء، فهو أحد أولي العزم من الرسل، وهم حسب الترتيب في الفضل: محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضلهم، وأعلامهم منزلة، ويأتي بعده إبراهيم عليه السلام، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوح، والله أعلم^(١)، وقد اجتهد أحد الشعراء فجمعهم في بيت شعر قال فيه^(٢):

أولو العزم نوح والخليل بن آزر

وموسى وعيسى والحبيب محمد
وقد ذكرهم الله مجتمعين في كتابه مرتين.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كِبْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس، ص ٦٤، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ص ١٧٩.

(٢) الكليات، الكفوي، ص ٦٥١.

مَنْ يُنِيبُ ﴿الشورى: ١٣﴾.

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون^(٣).

١. مرتبة الخلعة.

والخلعة هي أعلى منزلة بلغها عبد عند الله تبارك وتعالى، ولم يثبت في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قد حازها إلا اثنان:

الأول: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بما رواه عنه جندب رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمسين، وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا؛ لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا)^(٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد،

كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو امتثالاً منه ومنا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّبَعْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وذلك أنه باتباع ملته ينال شرف الانتساب إليه، وخاب وخسر من دنس دينه بالشرك، أو التحريف والتضليل والتزييف، فلا يمكن أن يكون من أتباعه، فملته هي الملة المائلة عن طريق الشرك، المستقيمة على طريق التوحيد، الحنيفية السمحة، أحب الأديان إلى الله، التي التزمت ما جاءها من عند مولاها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) (٣).

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَدَيْنَ اللَّهِ تَتَّبِعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

آمنوا بكل ما جاءهم من عند الله، متبعين لا مبتدعين، يتأولون القرآن والسنة بأفعالهم لا بأهوائهم، وذلك بتطبيقه في حياتهم واقعاً عملياً.

٣. جعل النار عليه برداً وسلاماً عليه الصلاة والسلام.

إن عداوة المبطلين والمعاندين لأهل الحق سنة ماضية، وطريقة متبعة، ضاربة

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/١٦.

الثاني: إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد أصبح ذكر هذه المنزلة مصروفاً عند ورودها في الكلام له عليه السلام، وكأنها صارت علماً عليه؛ فيقال إبراهيم الخليل، أو خليل الله إبراهيم، أو الخليل، فلا يعلم أنه يراد غيره عليه السلام وهذا لأنه مذكور في القرآن من قول الله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً؛ لأنه وفي بما أمر به، وصبر على ما ابتلي به» (١).

٢. الملة الخالدة.

شرح لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذكراً نقوله في الصباح والمساء، نقر فيه باتباعنا لما أمرنا الله به في كتابه، فنحن نقول: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين) (٢).

باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ٣٧٧/١، رقم ٥٣٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٠٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٧٧/٢٤. وصححه شعيب الأرنؤوط.

لها؛ فانقلبت لديهم الموازين، وجعلوا التعدي على آلهتهم فعلاً لا يفعله إلا أعظم الظالمين، فجعلوا شركهم عدلاً، وتوحيد إبراهيم عليه السلام ظلماً.

فقرررو الانتقام؛ فاستنفروا كل قوتهم، وجمعوا جماعتهم؛ ليقوعوا عليه نقتهم؛ فقابلهم الله تبارك وتعالى بأن عطل ناموساً من نواميس الكون وقوانينه، ردّاً على قلب الموازين الذي فعلوه؛ فجعل النار التي من سنتها أن يكون أثرها إتلافاً وإحراقاً، أن تصير نعيماً وسلاماً وإشراقاً، فقد كانت هذه الحادثة صفحة مشرقة من صفحات التاريخ، نتلو خبرها في كتاب الله عز وجل إلى قيام الساعة، وذلك حين نصر الله عز وجل نبيه ووليه إبراهيم عليه السلام، على أعدائه الطغام.

وخبر هذه الحادثة جاء في قوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبِلَاقِ آرَأَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَزَقْنَاكَ مِنْ رَبِّكَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَن ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعْنُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

بجذورها في أعماق التاريخ، منذ أن أرسل الله الرسل عليهم السلام لأهل الشرك في الأرض، فحين يعجز أهل الباطل عن الدفاع عن باطلهم، ولا يقبلون الاستسلام والانقياد للحق.

ويسعون في إظهار باطلهم في صورة يخدعون بها أهل الحق؛ ليوهموهم أن الباطل حق، والحق باطل، بزخرفة القول، والإغراءات المادية، وأساليب الترغيب والترهيب؛ فإنهم يلجؤون إلى الأساليب القمعية في أشنع صورها، ولا يدخرون عذاباً إلا واستعملوه في التنكيل بمخالفهم.

وقد كان إبراهيم عليه السلام ممن بلغت عداوة قومه له مداها، والرغبة في الانتقام منه متنهاها، حين حطم آلهة قومه الجوفاء من كل مضمون للألوهية باطناً، والعارية من كل موجب للربوبية ظاهراً، فدعاهم، واستهداهم، وخاطبهم بكل ألوان الخطاب المقنعة، وأقام عليهم الحجج الدامغة، ولكنهم زين لهم سوء عملهم؛ فافتعل تلك المشكلة المثقلة، التي أوقفتهم حائرين ضالين، أعماههم حبههم لآلهتهم عن اكتشاف انتفاء قدرتها، وامتهان قدرها؛ فهالهم قهرها؛ فطارت لذلك عقولهم، وانخلعت له قلوبهم؛ فعموا وضموا، وتساءلوا عمن قام بهذه الفعلة النكراء، فتذكروا ما كان من إبراهيم عليه السلام من التوعد والوعيد

الله عز وجل، ورد كيدهم في نحرهم، ورفع مكانة إبراهيم عليه السلام، وحط قدرهم، ونجاه من كيدهم، هو ومن آمن به، وأبدلهم أرضاً خيراً من أرضهم، ونزلاً خيراً من نزلهم، ومكانة ورفعة خيراً من نسبهم؛ فجعل منهم الأنبياء صلوات وسلام عليهم من ربهم.

٤ . إجابة دعواته:

إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة وسوف نذكر نموذجاً واحداً منه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ عَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تُلْفِي وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

[إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

ففي هذا المقطع من سورة إبراهيم يتبين

﴿٣١﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ، عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نَسِيتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبْرُهُمْ هَذَا فَتَشَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٣٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ﴿٣٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٣٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٤٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ [الأنبياء: ٥١ -

[٧١].

فقد جاءوه يرددون ويهددون، ويهددون ويتوعدون؛ فقابلهم بكل ثبات، وسخر منهم في موطن لا يسخر فيه من عدوه إلا العظماء، وذلك أنهم سألوه لا على سبيل الاستجواب، وإنما من باب إثارة الذعر والإرهاب؛ فقابلهم بثبات الواثق من نصر الله سبحانه وتعالى له عليهم، وأحال التهمة لكبير آلهتهم، ودعاهم - استهزاء بهم - لسؤال صنمهم؛ علمهم يجدون عنده ما يهدأ به روعهم، ويذهب بعلمه غيظهم؛ فأخزاهم

الموحدون، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعطى إبراهيم ما سأله إياه لمؤمنهم وكافرهم؛ لأنه أرحم بخلقه من إبراهيم - وليس أحد أوفى بعهده منه سبحانه وتعالى، فقد تكفل لهم بالأرزاق، فجاء قوله جل جلاله في تمام الآية: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَّبِعُهُ فَيَلَّاتُمْ أَنْضَطْرَهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُنَاسِ الْمَصِيرُ﴾.

الثبات على التوحيد الذي هو سبب كل خير.

ونعمة الإسلام هي النعمة العظمى التي تصبح بها كل هبة نعمة، وبدونها كل عطية نقمة، وإبراهيم عليه السلام يعلم أنه لا معصوم من الضلال إلا من عصمه الله، فعلى رفعة قدره، وعلو منزلته عند الله، إلا أنه لم يأمن على نفسه من الشرك، وهذا أمر لا بد وأن يتنبه له كل مسلم، وعليه كان دعاء إبراهيم عليه السلام ووصيته هو ويعقوب عليهما السلام لبنيهما عند الموت.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ بَيْنِي إِنْ أَلَّاهُ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

فالتوحيد هو أمان الأمة، وحصن الناس أفرادًا وجماعات من عقاب الله تبارك

من دعائه عليه السلام أهم ما يجب أن يحرص المسلم على سلامته مع توفيقه فيه، أولاً وآخراً، ولنستعرض ما جاء من ذلك في دعائه عليه السلام:

✽ الأمن في الأوطان.

وما كان إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء؛ ليسأل ربه هذا السؤال مقدماً حب الوطن على توحيد الله، فما سأله إلا وهو مؤمن بربه موحد له، فهو يعلم أنه لا أمن بلا إيمان، وهو صاحب المقولة التي جاءت عنه في كتاب الله.

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨١-٨٣].

فهو قد سأل الله هذا الدعاء بمقتضى إيمانه بالله، والقيام بما افترضه عليه.

وقد ورد ذكر دعاء له في سورة البقرة يوضح فيه إبراهيم عليه السلام ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَآلِئِنَّ الْآخِرَ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ ليظهر ما تقرر في نفسه أن الذي يستحق هذا الأمن إنما هم

يرفع من درجة أتباعه؛ ليجمعهم به، وأن يغفر لمن عصاه ويهديه، وذلك أن الله أخبره أنه سيرزقهم في الدنيا؛ فطمع أن يشملهم برحمته في الآخرة، فقال عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولكن الله أرحم بعباده من إبراهيم عليه السلام فهو لا يعذب إلا من تمرد عليه (٢)؛ فاستجاب الله جل جلاله له بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَأَذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

❖ الدعاء للذرية.

بعد أن استجاب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه، وذهب بهاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى بلاد الحجاز، وهي غير مأهولة، وما كان ذلك إلا لأنه علم أن الله سبحانه وتعالى قد قدر لهم أن يحيوا هذا المكان الذي هو أشرف بقعة على وجه الأرض؛ فلم يرض عليه السلام أن تكون مهجورة، خالية من طاعة الله، وجعل هذا هو علة مجيئه بهم؛ فأشفق عليهم من الوحشة التي سيعانون منها، فغريزة الإنسان أن يعيش اجتماعياً، غير معزول.

فقال كما أخبر المولى جل وعلا عنه:

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٢٦.

وتعالى، عن معاذ بن جبل قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن لا يعذبهم) (١).

وما يجب أن يحرص عليه المسلمون هو النجاة من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وذلك بالأبلا يلبسوا إيمانهم بظلم الشرك، أو أن يقدموا محبة أي شيء - مهما كان - على محبة الله، بل يلزمهم توحيدهم؛ ليتحقق لهم الأمن، والذي يعد المطلب الأساس والأهم لجميع المخلوقات، فكلها تسعى لتحقيقه، ولم ولن يتسنى لها ذلك إلا بالاستجابة إلى أمر الله، والسير بمقتضى النواميس التي وضعها الله لها، وهذا أمر قد أدركته الجمادات، ولم يدركه أكثر الناس الذين وهبهم الله العقل، لكنهم عطلوه وأهملوه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

❖ أن يجمعه مع أتباعه، ويغفر لمن عصاه. يعلم إبراهيم أن رحمة الله لا حد لها، وأن عفوه عظيم، وعلى ذلك سأل ربه أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله، ١١٤/٩، رقم ٧٣٧٣.

محمد عليهم الصلاة والسلام.

❁ الدعاء بالثبوت على العبادة، له ولذريته. فضل الصلاة عظيم، وشأنها خطير، وهذا ما ظهر من دعاء إبراهيم ربه بأن يثبت ذريته عليها ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤١].

وكذلك الدعاء الذي هو أقوى ما يتسلح به الإنسان، إن كان أهلاً لأن يجيب الله دعوته؛ لذلك جاء في دعائه في ختام الآية: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ وليس هنالك ما هو أجدر بأن يحرص عليه المسلم من ثباته وذريته على دين الله جل وعلا.

❁ الدعاء بالمغفرة له ولوالديه.

ولا يزال على أمل وطمع فيما فيه كل الرجاء، ألا وهو رحمة الله تبارك وتعالى؛ فيدعو معولاً على ذلك بالمغفرة له ولوالديه، فلم ييأس من ذلك ما دام الله لم يعلمه بالمنع منه، فبقي على رجائه فيه، إلى أن ثبت له أن والديه من المبعدين عن رحمة الله تعالى وتقدس، وعلى ذلك جاء قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٥. ثناء الناس عليه:

أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين عامة أن يذكروا نبيه إبراهيم وآل بيته، عليهم الصلاة والسلام، في كل صلاة بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالحال التي هم عليها في هذا المكان تستدعي الصبر، فهم مفارقون لراعيهم، وليس عندهم طعام ولا شراب ولا أنيس، فأراد من الله أن يجمع لهم بين عبادتي الشكر والصبر، وهو بذلك يحيل الأمر إلى عالمه، ويفوض الأمر إلى صاحبه، غير مفتتت على الله، مظهرًا لله إيمانه العميق بأن الله يعلم ما يدعوه فيه.

فيقول فيما يحكيه القرآن عنه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

فهو يعلم حال أهل إبراهيم عليهم السلام حيث هم، ثم يقر معلناً إثبات الحمد لربه على نعمه التي أسبغها عليه، ومن جملتها ما رزقه به من الذرية، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

اعترافاً بالفضل لربه، واستزادة من الكرم بحمده، وثناءً على الله بلطفه به، إذ إنه سمع دعاءه فأجاب.

وهي إجابة باقية إلى يومنا هذا، فإنك تجد كل مسلم، وهو يهوي قلبه إلى ذلك المكان، معمور بحب آل إبراهيم، وآل

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ
لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

وما كان ذلك إلا فضلاً من الله عليه؛
وذلك لما قام به من أمر الله، في ذلك البلاء
العظيم الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً بإذن
الله تعالى.

الصلاة عليهم والتسليم والتبريك^(١).
كما جاء عن أبي سعيد الخدري، قال:
قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك، فكيف
نصلي؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد
وعلى آله وصحبه وسلم).
وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما
باركت على إبراهيم وآل إبراهيم^(٢).

وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى:
﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٨﴾ سَلَامًا عَلَى
إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

وهو يثني عليه عند ورود ذكره في
القرآن، والأمم التي جاءت بعده تشهد
بفضله وتعترف بنبوته، وتتسبب إليه، حتى
أنزل الله أن هذا شرف لا يناله إلا من اتبعه
عليه السلام، ردًا على اليهود والنصارى
الذين زعموا أنه على دينهم بقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ
الْكُتُبَ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٧٥﴾ هَكَأَنتمْ هُنُورًا حَنَجَجْتُمْ فِيمَا
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ
يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا

(١) انظر: الأم، الشافعي، ١١٧/١، المجموع،
النووي، ٤٦٥/٣، المغني، ابن قدامة
المقديسي، ٥٤١/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب
تفسير القرآن، باب قوله: (إن تدوا شيئاً أو
تخفوه)، ١٢٠/٦، رقم ٤٧٩٧.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولاً: صفاته وأخلاقه مع الله:

عند الحديث عن الصفات التي يتخلق بها الناس، والأخلاق التي يتحلون بها، تنصرف الأذهان إلى الصفات والأخلاق الكائنة بين الإنسان وبين الناس، ويغفلون عن صفات العبد وأخلاقه مع ربه وخالقه، والأصل في الإنسان أن ينظر إلى حسن خلقه مع الله جل جلاله أولاً وقبل كل شيء؛ لأن من حسن خلقه مع الله، قطعاً سيكون حسن الخلق مع عباد الله، أما من لم يكن حسن الخلق مع الله؛ فالغالب عليه أن يكون سيء الخلق مع مخلوقات الله.

إذ إن الإنسان بطبعه ظلوم جهول، يميل إلى الطغيان بسبب ظلمه، ولا يعرف حدوده وحقوقه بسبب جهله، وهو إن لم يكن منضبطاً بضوابط الإيمان، ولم يظهر منه الظلم، وتعدي الحدود والاعتداء على الحقوق؛ فذلك غالباً ما يكون لعجزه، وفي المجمل، فمن كان متصفاً بالفسق، أو الكفر، أو واقفاً في أعظم الظلم؛ فإنه - وإن تحلى بكل مكارم الأخلاق فيما بينه وبين الناس - يبقى سيء الخلق.

وأما عن سيدنا خليل الله عليه السلام، فقد جمع بين حميد الصفات، وكريم الأخلاق مع الله جل وعلا، وجميل

الصفات، ونبي الأخلق مع عباد الله، وقد ذكر الله من حميد صفاته، وكريم أخلاقه مع ربه في القرآن ما يلي:

١. الاستسلام والانقياد لأمر الله.

وقد ظهرت هذه الصفة منه في مواقف كثيرة نذكر منها:

✽ إخلاص العبادة لله، والخضوع له بالطاعة.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] (١).

✽ إعلان براءته من أبيه وقومه والآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله.

وقد كان إعلان البراءة من الآلهة أولاً حين قال الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وحيث علم أنهم لن يكون منهم الإيمان بالله؛ تبرأ منهم جميعاً، كما جاء في قول الله تعالى عنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ لذلك جعل الله منه أسوة حسنة للمسلمين (٢).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩٢/٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

✽ إسكانه وزوجه وولده في مكة، ولم يكن فيها زرع، ولم يكن فيها سبب الزرع وهو الماء، وما يتبع عن وجود الزرع، وهو وجود الإنسان.

ويخبرنا الله عن شأن هذا الموقف، وأنه كان استجابة من إبراهيم عليه السلام لأمر الله في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

✽ إقدامه على ذبح ولده البكر إسماعيل عليهما السلام.

وجاء خبر هذه الحادثة في سورة الصافات: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَأَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَاءِ آيَةً فَأَبْجَأكَ فَاظْطَرَّ مَاذَا قَرَّبْتُ قَدْ نَبَأْتُ آفَعَلَ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدْبِيرُهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ إِسْرَائِيلُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَ الرُّبِّيُّ إِنَّا كَذَلِكِ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَتَدْبِيرُهُ يَذِيعُ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧] (١).

٢. أواه.

وقد وصفه الله بهذه الصفة في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

والأواه هو كثير التأوه؛ لكمال رأفته وشفقته ورحمته بنفسه وبغيره (٢).

٣. منيب.

وهذا الوصف جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

والمنيب هو «الرجاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عن من سواه» (٣).

٤. قانت.

ذكر الله تعالى من صفات إبراهيم (القنوت) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والقنوت: هو طول القيام في الصلاة، وليس هذا عندهم، بل هو في دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وجاء عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الصلاة طول القنوت) (٤).

وما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام يؤكد أن هذا الدين الذي جاء به هو عين الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

١٠٨

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٨٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، ١/٥٢٠، رقم ٥٢٠.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢١٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/

حقوق^(٤).

٧. صديق.

ومن الصفات التي وصف بها إبراهيم عليه السلام (الصديقية).

قال الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وروى أحمد بسنده عن أم كلثوم بنت عقبة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أعهده كاذبًا، الرجل يصلح بين الناس، يقول: القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول: في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها)^(٥).

والحق أن ذلك لم يكن إلا في مقام الكذب فيه أبلغ في تحصيل الخير من الصدق، وأقوى في دمع الباطل بالحق، وهو مع ذلك لم يكن قوله كذبًا من كل وجه.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم المواطن التي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله:

سئلت عائشة رضي الله عنها، كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعًا، فلا تسئل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسئل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا)^(١).

٥. حنيف.

جاءت في سياق الرد على أهل الكتابين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَنُرَيْكًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والحنيف: «هو المستقيم من كل شيء»^(٢)، وهو المخلص دينه لله وحده، والحنيفية هي ملة الإسلام^(٣).

٦. شاکر.

وهذه الصفة أيضًا من جملة ما جاء في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمٍ آجَبْتَهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

والشاکر هو المعترف بفضل الله تعالى وإنعامه عليه، والقائم بما أنيط بهذا الإنعام من واجبات، وأدى ما عليه فيها من

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٢٥٨/٨.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤٥/٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٢٨١/٤، رقم ٤٩٢١.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٢٠٤/٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، ٥٣/٢، رقم ١١٤٧.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠٤/٣.

(٣) انظر: المصدر السابق، ١٠٧/٣.

﴿لِلَّهِ حَيْفًا وَتَرَىٰ بِكَ مِنَ الشُّرَكِيِّنَ﴾ [النحل: ١٢٠].
أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا^(٣).

واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به في الخير^(٤).

ثانيًا: صفاته وأخلاقه في نفسه ومع الناس:

لقد اتصف نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام بصفات وأخلاقيات كثيرة، وذلك مع نفسه، ومع الناس من حوله، ما أهله ليجعل الله سبحانه وتعالى منه أسوة لهم يقتدون به، ويسيروا على ما سار عليه من صفات وأخلاق، وسنشير إلى ذلك في النقاط التالية:

١. الإمامة.

وصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والإمامة هي إمامة الدين، وجعلها الله عز وجل له في زمانه ولمن بعده من الناس، ولم يكن ربنا سبحانه وتعالى قد جعلها لأحد قبله من الأنبياء، وما زال متبوعًا إلى (٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٠١.

إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبره أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك^(١).

وتفصيل هذا له مساحة واسعة في كتب التفسير^(٢).

٨. وفيه.

وهي صفة كان إبراهيم أهلًا لها؛ حيث بلغ في طاعته لربه، وتبليغ رسالته، رتبة الكمال، وما قام به من ذبح ابنه الذي نجاه ربه، وجاء نعتة بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وهذا الوفاء هو الوفاء بعهده مع الله جل جلاله، من الإيمان والطاعة.
٩. أمة.

وصف القرآن الكريم إبراهيم بأنه كان إمامًا في الخير.
قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، ٤/١٤١، رقم ٣٣٥٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/٦٣، الوجيز، الواحد ص ٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/٢٤.

يومنا هذا بعبادة الحج ومناسكه.

٢. الحكمة.

لما حسد اليهود رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم؛ فضحهم الله سبحانه وتعالى، وأخزاهم بأن جعل الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما آتاه الله إبراهيم من الكتاب المنزل، وما أوحى إليه من الحكمة الملهمة.

يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ قَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

فهو يثبت الحكمة لنبيه إبراهيم عليه السلام، وأن مثلها قد أوتي محمد صلى الله عليه وسلم.

والحكمة: هي فعل الشيء الأحسن، على الوجه الأقوم، في الوقت الأنسب.

٣. الحلم.

وتظهر هذه الصفة في إبراهيم من خلال دوامه على الاستغفار لوالده مع إعلان والده العداوة له، فإن عداوة والده له لم تمنعه من الاستغفار له، ورجاء الهداية له، لكن عندما أعلمه الله أن أباه لن يؤمن، وأنه عدو لله؛ تبرأ منه، ووالى من هو أولى بالولاية، وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿وَمَا

كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوَدَّةٍ وَعَدَّهَا بِإِثْمِ فَلَمَّا بُنِنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكذلك حينما جادل عن قوم لوط رغبة في تأخير العذاب عنهم أيضاً وصفه الله جل جلاله بهذه الصفة.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٥].

٤. بر الوالدين.

حيث إن أبر البر بالوالدين أن يكون الولد سبباً في دخولهما الجنة، وهذا ما حرص عليه إبراهيم عليه السلام؛ حيث لاقى ما لاقاه من أذى والده، وعداوته له ولربه، إلا أنه كان يستغفر له ولأمه.

يقول تعالى حكاية عنه أنه كان يقول في دعائه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٥. الرشد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه.

كما قال تعالى: ﴿وَنَلِكُ حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا

إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴿[الأنعام: ٨٣]﴾ (١).

٦. الكرم.

بين الله سبحانه وتعالى اتصاف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفة بما أورده في كتابه عنه في وصف استقباله للضيف.

قال تعالى: ﴿هَلْ أُنثِقُ حَيْثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْنِ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَفَرَّغَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧] (٢).

وقد أظهرت الآية صفة الكرم من خلال النقاط التالية:

• وصف الله ضيفه بأنهم مكرمون، وكان ذلك بألوان من الإكرام تظهر في أقوال وأفعال إبراهيم عليه السلام معهم.

• استقباله لهم، حين قالوا له «سلامًا» بالنصب على الحالية؛ فأجابهم بقوله: «سلامٌ» بالرفع على الابتداء؛ فيكون قولهم جملة فعلية تدل على حدوث السلام، حال مجيئهم له هذه المرة، أما قوله فهو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستمرار للسلام في كل وقت.

• فعله حين راغ، يظهر منه أنه لم يشعرهم بعزومه على التأخر، أو صنع الطعام؛ الأمر الذي قد يتحرج بسببه الضيف.

• الإسراع في إحضار الضيافة؛ لأن الله عطف المجيء على الروغان بالفاء، ولم يعطف بحرف آخر من حروف العطف؛ لأن هذا الحرف يفيد عدم تراخي المعطوف عن المعطوف عليه، والذي يعبر عنه بالترتيب والتعقيب، مما يشعر بأن طعام الضيفان قد أعد مسبقًا.

• كان ما جاءهم به من الطعام عجل سمين، فلم يكن عجلًا ضعيفًا، وكان يكفيه أن لو جاءهم بكبش أن يكون كريمًا معهم.

• تقريب الطعام إليهم، ما يشعر أنه فعله بدون تكلف ولا تكليف، وهذا أكمل إكرامًا من الذي يضع الطعام في مكان، ثم يطلب من الضيوف أن ينتقلوا إليه.

• دعوتهم إلى الأكل بقوله «ألا»، وهو حرف يفيد العرض بلطف.

٧. صاحب القلب السليم.

هو وصف لم يوصف به أحد في القرآن الكريم إلا إبراهيم عليه السلام، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَإِلَيْهِ يُرْجَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

فهو صاحب القلب السليم.

وقد ظهرت سلامة قلب إبراهيم عليه السلام من خلال عدة مواقف، جمعها الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٠٥.

(٢) انظر: الرسالة التبوكية، ابن القيم، ص ٦٣.

فإنكاره بالقلب ظهر في قول الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿تَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩].

حيث جاء في تفسيرها أنه يشق عليه رؤية ما يفعلونه من أعمال الشرك؛ لشدة إنكاره لها، وهذا أمر لا شك أنه يؤلم كل مؤمن موحد بالله تبارك وتعالى، وأما إنكاره باللسان ﴿تَتَّبِعُونَ مَا تَحْتَوْنَ ۗ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥-٩٦].

حيث بين لقومه سفاهة فعلهم، وكذلك أنكر باليد ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ صَرًّا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣] حين قام بتحطيم الآلهة^(٣).

• ثباته على دين الله مهما كانت التحديات.

ويظهر ذلك من خلال قول الله عز وجل عنه: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ ۗ قَالَ أَتَّبِعُونَ مَا تَحْتَوْنَ ۗ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۗ قَالُوا آتِنَا آلِهَةً بَنَيْنَا لَهُمْ بَنِينَ قَالُوا فَتَبَوَّءُوا لَهَا عِزًّا قَالُوا فَاذْهَبْ بِهِنَّ كَمَا جَعَلْتَهُنَّ مِنَ الْأَنْثَىٰ ۗ﴾ [الصفات: ٩٤-٩٨].

حيث جاءوه مسرعين مستنفرين على هيئة مفزعة مريعة، فما عبي بثورتهم، ولم يرهبه هجومهم، واستهزأ بهم، وسخر من آلهتهم بأسلوب مفحم، كما جاء في موضع آخر من كتاب الله ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾

سبحانه وتعالى بعد ذكره لهذه الصفة في سورة الصفات، نذكر أهمها فيما يلي:

• إنكار الشرك بالله.

وبدا ذلك في قول الله جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۗ ﴿٨٥﴾ أَيْفَاكُمُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ٨٥-٨٦].

وذلك أن الشرك هو أعظم الظلم، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمَنٍ لِأَيِّهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَئِي لَأَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]^(١).

• الدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

وقد تمثل ذلك في قول الله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿فَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ فَالْجَارِ عَسَىٰ تَكُونُونَ﴾ [الصفات: ٨٧] فهي دعوة إلى توحيد الله جل جلاله، ففي سؤاله هذا تذكير بربوبية الله لجميع المخلوقات، فالعالمين جمع عالم وهي تعني: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، وفيه تذكير بأن الله جل جلاله متصف بكامل الصفات؛ لأن السؤال عن الظن سؤال عن الاعتقاد حول ما يعتقدونه من صفات الله عز وجل، وفيه تنبيه على أنه لا يستحق العبادة إلا الله جل جلاله^(٢).

• أمره بالمعروف وإنكاره للمنكر، بالقلب وباللسان وباليد.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٩٧/٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٠٥، أيسر التفاسير، الجزائري، ١١٨/١.

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ٨/١، الداء والدواء، ابن القيم، ص ١٢٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢٤١/٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٨٢.

فَتَلَوْتُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿﴾ [الأنبياء:

[٦٣].

وكرر إنكاره عليهم بقوله: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] (١).

﴿ هجرته من البلد التي لا يعبد فيها الله، وبراءته من أهل لا يعبدون الله.

وذلك حين أعلن عن هجرته، وهذا ما

برز في قول الله جل جلاله: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ [الصافات: ٩٩].

فالموحد لله جل جلاله لا رابطة بينه وبين أي شيء إلا رابطة ترضي الله عز وجل، فإن لم يجد في قومه، أو في وطنه، أو أي أمر من أمور الدنيا ما يعينه على طاعة ربه، أو وجد فيه ما يصدّه عن دين الله؛ فهو يهجره ويتركه، ويبحث له عن مكان آخر يعبد ربه فيه.

يقول الله تبارك وتعالى في حق أقوام ضلوا، وعصوا ربهم بسبب استضعافهم في البلد التي كانوا فيها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿﴾ [النساء: ٩٧] (٢).

وإن كان الأهل هم من يصدونه عن دينه؛

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/٤٤٠، روح

المعاني، الألويسي، ١٢/١١٨.

(٢) انظر: تفسير المراعي، ٢٣/٧١.

تبراً منهم.

يقول تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْفُتُورُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ نَرْوِيكَ عَلَيْكَ ذُكْرًا وَإِلَيْكَ أُنْتَابُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿ تقديم حب الله على كل حب سواه.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَىٰ فَكَالَ يَبْقَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِرِ آيَاتٍ أَدَّبُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا بَتِ أَيْمَنُ الْمَعِينِ أَعْمَلْتُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

من المسلم به أن ولدًا يولد لرجل بعد انتظار عشرات السنين، وبعد دعاء الله عز وجل بأن يرزقه الله إياه، ويكون ولدًا بارًا بأبيه؛ فلن يكون في الوجود أعز على قلب أبيه منه، فما بالكم فيمن هذا حاله ويأتيه الأمر بذبح ولده؟! كيف هي درجة الابتلاء بمثل هذا الأمر!؟

ومع ذلك استجاب لربه، راضيًا مطمئنًا؛ تضحية بأعز مخلوق، من أجل إرضاء الله، أين أصحاب المعاصي -مهما بلغت درجة تعلق قلوبهم بها-، أو شدة حاجتهم إليها، هل يمكن أن تقارن درجة تضحيتهم بترك هذه المعاصي، بهذا الابتلاء الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا

الأمر.

وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يعلم أن ابنه سيستسلم لأمر الله، ويكون عوناً لأبيه عليه، ولو حصل له من العلم ما يخالف ذلك؛ لما عرض الأمر عليه يشاوره فيه.

وذلك ما جاء في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَا بَنِيَّ أَعْمَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [الصافات: 107-108].

قرئت بالفتحتين في قوله: ﴿هَذَا تَرَىٰ﴾ على سبيل عرض الأمر على ولده واستشارته؛ لثقتة بأن رد إسماعيل -الذي رباه على الامتثال لأمر ربه- سيأتي مرضياً عند الله عز وجل؛ وهو بذلك يتقرب لله عز وجل بعبادتين ظهرتا في هذا الموقف:

الأولى: تربيته لولده تربية أثمرت سرعة الامتثال والطاعة، مهما كلف الأمر.
والثانية: عبادة تنفيذ الأمر.

وفي القراءة الثانية بالضم والكسر على الحث والتحضيض لإسماعيل صلى الله عليه وسلم على الامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، وهي بمعنى: فانظر ماذا تري ربك من الامتثال، والصبر على أمر الله جل جلاله، في موطن لم تسبق إلى مثله، وهنا أيضاً تظهر عبادتان الأولى: حث ولده على التضحية بحياته؛ إرضاءً لربه برضى نفس،

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءَابِتُوا الْعَيْنِ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿[الصافات: 105-106].

إن الذي يمر بابتلاء من الله عز وجل ويكون شأنه مع هذا الابتلاء مرضياً لمولاه جل جلاله لا يمكن أن تكون عاقبته مؤلمة، فابتلاء الله سبحانه وتعالى لعبده ربما يكون مصحوباً بألم متفاوت الدرجات بحسب صلاح العبد.

سأل سعد بن أبي وقاص النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةً ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة) (١).
لكن هذا الألم إذا ما قورن مع لذة العاقبة التي سيكافئه الله عز وجل بها؛ فإنه لا وزن له (٢).

تربية ولده على الاستجابة لأمر الله وإعاقته على طاعة الله مهما كلف

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/٦٠١، رقم ٢٣٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣. وصححه الألباني.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص ١٤٣، محاسن التأويل، القاسمي، ١/٤٦٢.

وثبات وصبر، والثانية: تنفيذه للأمر^(١).

✽ الامتثال لأمر الله وتنفيذه على الهيئة التي أمر الله بها.

وقد ظهر ذلك الامتثال بتمامه في قول

الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَهْلَهُ﴾ [الصافات: ١٠٣].

أمر بالذبح؛ فامتثل بالذبح، ولم يلجأ إلى طريقة أخرى مثل قطع رأسه مرة واحدة، أو دفعه من فوق جبل، أو دفنه حياً، -حال غيبوبة؛ ليهون عليه الأمر-، ولم يأت بطريقة أشد قسوة مثل التقطيع أو التحريق مبالغة في التقرب لله، بل امتثل الأمر كما هو، مبتعداً بذلك عن التفريط والإفراط.

وفي هذا وقفة مع أهل البدع، والمناهج المحدثه في عبادة الله:

ففرق منهم يفرطون في شأن العبادات -بحسب شهواتهم ومصالحهم-، لا وفق ما تقتضيه قواعد الشريعة ومقاصدها.

وفريق آخر يزيدون من التشديد في العبادات على قصد المبالغة في التعبد لله عز وجل -بحسب أهوائهم وأذواقهم-.

والوسطية: هي الإتيان بالعبادات والطاعات على الوجه الذي أمر الله به.

فينظر إن كان في إتيانها على الوجه الذي أمر الله به ما يتعارض مع مقاصد الشريعة،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٤٥/٢٦، التسهيل، ابن جزى، ١٩٦/٢.

بحيث يترتب عليه مشقة غير محتملة وخرج على الناس، أو يترتب عليه ضرر وخطر على حياة العبد؛ فإن الأمر يخفف على وجه مآذون فيه، وفق قواعد الشريعة وأصولها.

وإن لم يترتب عليها شيء مما سبق؛ فلا يبالغ في العبادة، ولا يشدد فيها، إنما يأتي بها العبد على الوجه المأمور، من غير زيادة ولا نقصان، زعمًا أن في الإتيان به على هذه الكيفية مزيد تقرب لله عز وجل؛ فإن أعظم التقرب لله جل جلاله هو امتثال الأمر كما أمرنا به تبارك وتعالى^(٢).

✽ عدم إضمار الغل والغش والحقد والحسد لعباد الله، سليم من التعالي والتكبر على عباد الله، وهكذا هي صفات المحسنين.

يقول الله عز وجل في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تعسسوا، ولا تناجسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباعضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا)^(٣).

(٢) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص ١٢٢، أثر الإيمان في تحصين الأمة، عبد الله الجربوع، ٤١٢/١، حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، ٣٩٣/١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب،

أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ^(٢).

ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ما يفضي إلى إعراض الناس عن الحق؛ مبيناً لنا خطر هذه الأخلاق على أمة متماسكة، أنها إذا فشت فيها؛ فإنها ستذهب بدينها الذي هو سبب عزتها، وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم: (دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم)^(١).

❁ سالم من التعظيم لنفسه والعجب؛ لأنه يرجو لنفسه أن يكون من جملة عباد الله.

وقدم الله بتحقيق رجائه فقال جل جلاله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصفات: ١١١].
يرجو هذا الرجاء، وقد جعله الله إماماً يعدل أمة؛ فهو سليم من الحرص على الدنيا، سليم من كل مرض وعيب، سليم من كل داء وعطب مما ذكره الله في كتابه، أو جاء ذم صاحبه في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلي

باب قوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن)، ١٩/٨، رقم ٦٠٦٦.
(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد والورع، باب رقم ٥٦، ٤/٦٦٤، رقم ٢٥١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٣٤/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة النار، باب صفات أهل الجنة وأهل النار، ٨/١٦٠، رقم ٧٣١٢.

دعوته عليه السلام

أولاً: معالم دعوته:

جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) (١).

وفيه تفسير لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فجاءت دعوته على هذا السنن، دعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ونبذ الشرك وشريعة الشيطان، وقد برزت معالمها على النحو التالي:

١. إعلان التوحيد.

وقد أعلن ذلك في مواقف عديدة، وبعبارات متنوعة، ذكرها القرآن في مواضع متفرقة، نذكر منها ما جاء في سورة العنكبوت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دَاوُدَ إِذْ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

حيث إنه أمرهم بعبادة الله وحده، محذراً إياهم من عقابه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، ٤/١٦٧، رقم ٣٤٤٣.

٢. إنكار الشرك.

فقد أنكر عليه السلام أن يكون حق الألوهية لغير الله، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّكَ أَنْتَ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا وَاللَّهُ إِتَىٰ آتَىٰكَ وَوَمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فوصف هذا الفعل بالضلال، لو فعله أي أحد كائنًا من كان، فهو يخاطب أباه وقومه. ٣. البراءة من الشرك وأهله.

تبرأ من قومه ومن أفعالهم بعد أن رأى إصرارهم على ما هم عليه من عبادتها.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

- [٢٨].

٤. إعلان العداء لهم ولآلهتهم.

عندما يتقن من خبر الله له أنهم لن يتركوا عبادتهم للأصنام، أعلن العداء بينه وبين معبوداتهم.

يقول الله مخبراً عنه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَعْلَمُ عُدُوًّا لِإِلَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

﴿٤٢﴾ يَتَابَتِ إِيَّايَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْبَنُوتُ لَمْ تَكُنْ لِرَبِّكَ لِتُحْضِرْ وَهُوَ يُحْضِرُ يَا أَعْمَى الْعَبْدُ لَكِ رَبٌّ إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا ﴿٤٦﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٧﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

حوار عذب هادئ رصين، ملؤه الحنان والعطف والشفقة، سمته الأدب والبر والتقدير، وهذا من جهة إبراهيم (١). وفي المقابل الفظاظة والجفاء والغلظة من جهة والده، وتظهر السمات سالفة الذكر في أسلوب إبراهيم عليه السلام من خلال ما يلي:

نادى والده مستعملًا في ندائه تاء الاحترام (أبت) بدلًا من استعمال ياء الإضافة.

لم ينعت أباه بالجهل، بل أشعره بأنه يعترف بما لديه من علم، لكنه أخبره أنه قد أتاه الله علمًا زائدًا على الذي عنده.

طلب منه أن يتبعه؛ معللًا ذلك بأنه قد عرف طريق الحق، ولم يذكر له أنه على طريق عوجاء.

ذكر له الداعي الذي دعاه لهذا الحوار-

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١١/٤.

٥. الهجرة من البلد الذي يعادي دين الله.

وذلك حينما أوقدوا له النار؛ بسبب ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، ونبذ الشرك بالله تبارك وتعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩].

ثانيًا: أساليب دعوته:

التنوع في أساليب الدعوة أمر هدى الله إليه رسله وأنبياءه؛ فإن لكل مقام مقالًا، ولكل حادثة حديثًا، والأسلوب الذي يحسن استعماله في موطن؛ لا يصلح أن يستعمل في موطن آخر، وهذا من الحكمة التي أتاه الله إبراهيم عليه السلام؛ فقد استعمل مع قومه أساليب نظرية في دعوتهم، وأخرى عملية، سنعرض لها على النحو التالي:

١. الأساليب النظرية.

✽ الحوار.

يقص علينا القرآن الكريم ما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه من حوار حول عبادة غير الله.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا

وَالْأَرْضَ حَنيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٥﴾

[الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وكان من حكمته أن قد بدأ بالأصغر؛ ليبين أنه إن لم يستمر في الظهور؛ فلا يستحق أن يعبد، ثم ثنى بما هو أكبر، وهو القمر، فلربما كان هو الأبقى الذي يستحق العبادة؛ لأنه أقدر على الظهور، فلما غاب؛ بين لهم أنه جدير بالكفر بعبادته، ثم التفت إلى الشمس وقد كانت منافعها أكثر، لكنها جرت على سنة سابقها من الاختفاء؛ فكانت لها نفس النتيجة، وهي عدم استحقاق العبادة.

❁ الدعوة إلى التبصر والتدبر.

كان إبراهيم أمة كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه، فقد استفد كل الأساليب والوسائل في دعوة أبيه وقومه، وذكر الله جل جلاله أمثلة عليها.

ومن هذه الأمثلة قوله عز وجل: ﴿وَأْتَلُ

عَلَيْهِمْ بَأْسَ إِزْرِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِنْكُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّنَا قَوْلًا هَلْ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ أَوْ بِنَعْلِهِمْ أَوْ صُورِهِمْ أَوْ لِيُؤْتِيَنَا مِنْ سَمَوَاتِنَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَقَدْ أَعْيَبْنَا قَوْمَكَ فَإِذَا تَوَلَّى سَخِرْنَا مِنْكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٥﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٧﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿٩٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ إِزْرِيمَ ﴿١٠٠﴾

الأمر الذي قد يراه أبوه جراً منه عليه-، وهو الخوف والإشفاق على أبيه من عذاب الله تعالى.

قوله له بعد التهديد والوعيد الذي قابله به: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

❁ التعريض والإشارة.

وذلك في يوم اجتماع لقومه يعظمون فيه النجوم، خرج معهم وأظهر أنه سيفعل مثل فعلهم، وما كان ذلك عن إيمان، وإنما مجازاة لهم؛ ليبين لهم ضعف عقولهم، إذ لم يتفكروا ولم يتبصروا، فالمعبود الذي يستحق العبادة لا ينبغي له أن يتغيب عن عبيده، ولما كانت النجوم تظهر وتختفي؛ كان هذا دليلاً على نقصها وعجزها^(١).

يقول الله سبحانه وتعالى عن هذا الأسلوب وكيف وظفه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِينِي بَرِيءٌ وَمِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٨.

[الشعراء: ٦٩-٨٢].

أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا
لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُتَّهَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿[الأنعام: ٨٠-٨٣].

الموقف الثاني: مع النمرود:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَإِيسَى قَالَ أَنَا
أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿[البقرة:
.٢٥٨]

✽ الاستهزاء والتهمك.

وقد ذكر الله له ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: عند دعوتهم له؛ ليشهد

عندهم الديني:

ويصف المولى هذا المشهد قائلاً:

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾
فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَيْهَا إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿[الصفافات: ٨٨-
.٩٢]

ولنا وقفة مع هذه الآيات الثلاث، حيث

إن المفسرين اختلفوا في سبب قول إبراهيم

عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على أقوال كثيرة؛

دعاهم إلى النظر والتأمل في طبيعة
آلهتهم، فهل لديها ما يوجب لها العبادة
من مقومات الألوهية، فهل هي تسمع
دعاءهم؟ وهل يمكنها جلب المنافع لهم؟
أم هل يمكنها دفع المضار؟ فأجابوه: بأن
هذا فعلٌ عهدوا عليه آباءهم، فهم متبعون
لهم على هذه الطريقة؛ فأخبرهم بأن هذا
لا يبرر فعلهم، وهو فوق ذلك يعلن العدا
لكل معبود عبده قومه وآباؤهم، إلا أن
يكون المعبود هو الله؛ لأنه وحده الذي بيده
الرزق، وهو الذي بيده الشفاء من الأمراض،
وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يغفر
الذنوب جميعاً يوم القيامة، ففيه الرجاء
لفعل هذا؛ فهو حقيق بالعبادة^(١).

✽ المحاجة والمجادلة.

ويظهر هذا الأسلوب في موقفين ذكرهما

القرآن:

الموقف الأول: حين خوفه قومه من

آلهتهم أن تصيبه بسوء:

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا
المشهد: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ
وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ آخَافُ مَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي،
ص ٥٩٢.

والذي يؤكد أن الكذب هنا هو المراد حقيقة، وذلك في حديث الشفاعة الذي جاء فيه قول إبراهيم عليه السلام حين يأتيه الناس؛ ليشفع لهم: (فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات) (٣).

ولكنه كذب لا يذم فاعله؛ كغيره من الأنواع التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أعده كاذباً، الرجل يصلح بين الناس، يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها) (٤).

وما واحد من هذه المواطن في الشرف بمكانة، مثل المواطن الذي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، إذن هو كذب مشروع، ومأجور عليه صاحبه، وما كان من اعتذار لإبراهيم عليه السلام عن الشفاعة، -معللاً

ليخرجوها مخرج الصدق، وهو بلا شك مقصد حسن.

لكنه يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات، ننتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبره أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك) (١).

وذهب بعض العلماء إلى رد الحديث، وتضعيفه، وهو مروى في الصحيحين.

إن الناظر في اختلاف المفسرين في هذه المسألة يجدها على أقوال (٢)، وإن كانت محمولة على الاعتذار لنبي الله إبراهيم عليه السلام، إلا أنها تضعف عن النهوض لتوفيق بين ما يروونه وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم في إبراهيم عليه السلام.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، ١٤١/٤، رقم ٣٣٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، ٩٨/٧، رقم ٦٢٢١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦٣/٢١، الوجيز، الواحدي، ص ٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٤٢/٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٤/٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ذرية من حملنا مع نوح)، ٨٤/٦، رقم ٤٧١٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤٥ / ٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٢٨١/٤، رقم ٤٩٢١. وصححه الألباني، صحيح الجامع ١٢٠٤/٢.

مرة أخرى حينما سألوه عن حطم آلهتهم، قال: ﴿قَالَ بَلْ فَكَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وهذه حدثت بعد قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقد توسطت هذه الحادثة، تلكما الحادثتين، وهما من قبيل واحد، وقد أشبهتهما هذه الحادثة؛ فلا يمتنع أن تكون من جنسهما، أي: أنه قال هذا القول على سبيل الاستهزاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

الموقف الثاني: قبل تحطيم الأصنام: حين دخل على الأصنام، وقرابين قومه التي قربوها إليها موضوعة أمامها؛ فسأل الأصنام، -وهو يعلم أنها لن تجيبه-، فكان سؤالاً على سبيل الاستهزاء بفعل قومه، فهو يعلم أنه لا ذنب لحجر -لا اختيار له فيما صنع به من التعظيم-؛ ليكون نداءً لله عز وجل.

يقول الله تبارك وتعالى مخبراً لنا عن هذا الموقف: ﴿قَرَأَ إِلَىٰ آلِهِم بِمَنْزِلِ رَبِّهِمْ أَنزَلْنَا أَنزِلًا ۚ لَمَّا قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا لَهُ رَاغِبُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴿١٢﴾ تَوَلَّوْا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ ﴿١٣﴾﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

ثم قام بتحطيمها لا عقوبة لها، ولكن تبيكياً لقومه، وتنفيذاً لوعيده الذي توعدهم به، واستحضاراً بهذا الفعل لعقولهم؛ لعلهم يرشدون حين يرون آلهتهم وهي محطمة، لم تستطع الدفاع عن نفسها^(١).

ذلك بهذه المواقف-، إلا حياؤه من الله عز وجل؛ لأنه كان بإمكانه أن يأتي بالعزيمة؛ لبيان الحق في تلك الأقوال مباشرة، وتحمل تبعات ذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، والله جل جلاله أعلم.

وتوجيه القول بأن ما صدر من إبراهيم إنما هو كذب؛ أن قوم إبراهيم عليه السلام حينما دعوه لحضور عيدهم، -وكانوا قوماً يعظمون النجوم-؛ فنظر إلى النجوم قائلاً: إني سقيم أعجز عن حضور عيدكم، فإن كانت هذه النجوم التي تعظمونها قادرة على شفائي؛ أذهب معكم، حينها تولوا عنه مدبرين، حيث إنه أفحمهم بحجته، وقد علموا أنه إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء؛ فتركوه؛ حتى لا ينغص عليهم عيدهم، ويسمعهم ما يكرهون في آلهتهم.

وهي ليست بالأمر الغريب على إبراهيم عليه السلام، فقد سبق له أن خاطبهم بالطريقة نفسها، حينما بين لهم عدم صلاحية الشمس والقمر والنجم للعبادة، حيث أوهمهم بقوله كما بيينه لنا القرآن: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

مرة في الكوكب، ومرة في القمر، ومرة في الشمس، وهو لا يريد بقوله هذا أنه آمن بها، وإنما أراد التدرج معهم؛ لبيان عدم صلاحيتها للألوهية.

وهذه كانت قبل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وفي

(١) انظر: مرآة لبيد، عمر الجاوي، ٣٠٤/٢.

الموقف الثالث: بعد تحطيم الأصنام: بعد ذهاب قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم فعل إبراهيم عليه السلام ما كان قد توقعه به من كيد للأصنام، فقام بتحطيمها، ثم لما رجعوا؛ وجدوا ما حل بها، فتساءلوا عن فعل هذا بها؟، ثم تذكروا أن إبراهيم عليه السلام قد ذكرها وتوعدها، فذهبوا إليه؛ ليتثبتوا منه، وقد أضمروا الكيد به، والانتقام لألتهم من فعلته.

وقد كان بينهم هذا الحوار، حيث يقول الله عز وجل: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ أَلْمَةٌ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٧].

قالوا له: هل أنت الفاعل بألتهنا ما نراه يا إبراهيم؟ فأجابهم إجابة يعلم أنها ليست بحق، ولكنه أراد بهذه الطريقة أن يوقفهم على ما فيه نقص عقولهم بمنهاج عملي، ولنا معه وقفة، فهو لما قال لهم: إن الفاعل هو أكبر أصنامهم، وأشار عليهم بأن يسألوه هو بدلاً من أن يسألوا إبراهيم عليه السلام، وهو يقول لهم ذلك مستهزئاً بعجز ألتهم؛

لعلمه القاطع بعدم قدرتها على الإجابة، توقفوا مع قول إبراهيم عليه السلام، وفهموا مراده.

لكن سرعان ما انقلبوا رأساً على عقب؛ فقد أقرؤا بعجز ألتهم، ثم لم يلبثوا أن تركوا التأمل في طبيعة أصنامهم، واحتجوا لأنفسهم على إبراهيم عليه السلام بما أراده أن يكون حجة عليهم، فإذا بلغ منهم الأمر هذا المبلغ؛ فأى رجاء حيثيذ في هداية قوم احتجوا بالباطل البين -الذي هو حجة على بطلان الباطل-؛ فجعلوا به الباطل حقاً؟

فجاء رد إبراهيم عليه السلام بالتضجر منهم ومن عقم تفكيرهم، متسائلاً كيف تقبلون على أنفسكم أن تكونوا عباداً لشيء لا يحصل لكم منه نفع، ولا يحل بكم منه ضرر؟! وأكبر دليل أنه لا يستطيع أن يشفي غليلكم في إجابة هذا السؤال الذي أنتم بحاجة ملحة لمعرفة إجابته، أين عقولكم!!؟^(١).

٢. الأساليب العملية.

✽ اعتزالهم ورفض المشاركة في أعيادهم.

هذا خبر إبراهيم عليه السلام حين دعاه قومه للاحتفال بعيدهم، وكيف رد عليهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٠٢.

[الصفات: ٨٨-٩٠].

فعل إبراهيم عليه السلام بعد إقامة الحجّة منه على قومه في مواطن كثيرة، وبعد سابق وعيدهم على أنه سيكيد أصنامهم، وبيان عدم خوفه منها، واستنفاد كل الأساليب النظرية في بيان الحق، فقد قام بأسلوب من نوع آخر، إنه الأسلوب العملي في إبطال الباطل، إنه تحطيم مصدر الخوف المانع لهم من اتباعه، والإثبات بطريق عملي حسي قاطع، شاخص أمام أعينهم، ومائل بين يدي عقولهم، وشاهد يسمعون أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً؛ فحري بهم أن يهجرها، وجدير بهم أن يهملوها، ولكن ﴿وَمَنْ يُؤِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْعَالَمِينَ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرُبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩١-٩٣].

ويأتي بيان الحال التي ترك عليها الأصنام في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]. وإبقاء الكبير أيضًا كان من أجل تقوية الحجّة على عجزهم، وذلك أنهم قد يظنون أن الحادث قد وقع بشكل مفاجئ؛ فلم تكن الفرصة للنجاة أو الدفاع عن النفس قد توفرت لديها، وهذا إنما يأتي على سبيل المجارة لعقولهم العقيمة؛ وإلا فإن من

قد مر معنا في الأساليب النظرية أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل مع قومه في هذه الحادثة أسلوب التعريض والاستهزاء في عبادة النجوم، وبيان عدم قدرتها على الثبات على حال الظهور، وعجزها عن تحقيق الخير الذي يرجوه الإنسان من معبوده.

وقد كان الموقف الأخير حين جاءوا إليه لدعوته لأن يشاركهم في عيدهم؛ فرفض وتهكم بهم وبعيدهم ومعبودهم؛ ففروا من أمامه؛ لعلمهم أنهم لو مكثوا عنده مزيداً من الوقت؛ لأسمعهم مما يكرهون في آلهتهم أكثر.

فجاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿فَنَزَلْنَا عَنْهُ مُدْرِيْنَ﴾، فشبهم بالذي يفر من الزحف مولياً دبره للعدو خوفاً، لا من الهزيمة؛ فإنه لا يفعل ذلك انهزاماً، ولكن خوفاً من القضاء عليه.

وهم قد خافوا من أن يقضي إبراهيم عليه السلام على فرحتهم إذا قضى على صحة معتقدتهم، وأبطل دينهم وحجتهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الحجّة الدامغة في مواقف المحاجة والمناظرة^(١).

✽ تحطيم الأصنام.

يذكر الله عز وجل هذا الموقف من

(١) انظر: المصدر السابق ٢١٦/٨.

كان يستحق الأثوية يجب أن يكون محيطاً بعلم الحوادث قبل وقوعها، ولا يمكن بحال أن تغيره أو تؤثر فيه، فإن وجود الكبير والحال هذه دليل على عجزه عن الدفاع عن حاشيته^(١).

❁ الهجرة.

بعد أن استفرغ إبراهيم عليه السلام وسعه، وبذل كل جهده، في إصلاح قومه، إلى أن انقطع أمله منهم، وذلك بعد أن بلغ بهم الإصرار والعناد مبلغاً، دفعهم إلى الكيد له، والسعي في قتله شرقتة؛ هجرهم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ

رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

ويقول أيضاً: ﴿وَأَعَزَّتْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ

مِن دُونِ اللَّهِ وَاذْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ

رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

ولم يكن مراده الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى من الأرض إلى السماء؛ ليصير إلى جوار ربه، ولا الهجرة من بلد أهله وقومه إلى بلد آخر من أجل الدنيا، وإنما هجرة من الأرض التي يعبد غير الله عز وجل فيها إلى أرض يستطيع فيها عبادة ربه وحده لا شريك له^(٢).

ولم يلجأ إلى هذا الفعل بمجرد أذى لحق به، فلطالما آذاه وقومه، ولكن الأمر قد بلغ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود،

٧٤/٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٧١/٢٣.

فقد أقام الحجة في هذا المقام، ببيان معالم العجز التفصيلية في آلهة أبيه، والمقتضية ممن له مسحة عقل، وملحة رشد أن يتبرأ من عبادتها؛ فهي عاجزة عن السمع لمن ناداها، عمياء عن رؤية من تقرب إليها وتولاها، ولا تغني شيئاً عن استجداها، وما هي في حقيقتها إلا عبادة للشيطان، ومعصية للرحمن، وموالة للعدو الأول للإنسان، فماذا كانت حجة الوالد، التهديد والوعيد، والطرده المديد، وهذه حجة من بغى وطغى، ليس فيها حق ولا هدى^(١).

٢. محاجته لقومه.

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام الدعوة إلى ترك ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام والتصديق بالنجوم وهجرهما، والتوجه إلى الله جل جلاله بالتوحيد الخالص، وكان قومه يخافون من أن يكون للأصنام والنجوم تأثير في مقادير الناس؛ فحذروه من أن يصيبه من شؤم فعله على حد تعبيرهم ما يكره؛ فرد عليهم أنهم أهل لهذا الخوف بما اعتقدوه في أصنامهم من هلاوس، وما أحدثه الشيطان في نفوسهم من وساوس.

أما إبراهيم عليه السلام فهو في أمان من هذه الهواجس، فمن خاف الله سبحانه وتعالى؛ أمنه الله جل جلاله من كل شيء،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٤.

محاجته عليه السلام لقومه وللملك

أولاً: محاجته عليه السلام لأبيه وقومه:

١. محاجته لأبيه.

إن أعلى رتب الكمال البشري تكون حيث كمال الرجل بأخلاقه، وإن الوالدين هم أولى الناس بتحسين الأخلاق معهم بعد رسل الله عليهم السلام، وقد صور لنا القرآن هذا الخلق الحسن فيما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، وتقدم بيان هذا في ما سبق، حين تعرضنا لأسلوب الحوار في الدعوة.

وكان حواراً أقام فيه إبراهيم الحجة على والده، ببطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، كما أخبر الله عز وجل: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَابًا ٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

ومن خاف غير الله عز وجل؛ أخافه الله تبارك وتعالى من كل شيء^(١).

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا الحوار: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا نَحْتَجُّوْكَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّيَ شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

أعطى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام الحجة في كل موطن؛ فكان الأعلى دائماً على من وقف أمامه، وقد عجز قومه عن إقامة الدليل على صحة ما يعتقدونه؛ فلجأوا إلى أسلوب الإرهاب والتخويف بألتهتهم، فجاءهم الجواب من إبراهيم عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى قد هداه، فهو على غير شاكرتهم، لا يخاف إلا أن يقضي الله جل جلاله أمراً أراد به أن يهلك أحداً من خلقه، ولو أنهم كانوا يعقلون؛ لعلموا أن الله عز وجل وحده هو الذي يستحق أن يخشى بالغيث.

أما ألتهتهم فليس هناك أدنى مبرر للخوف منها، فعلى الأقل هي لا تسمع؛ فهي صماء، لا تبصر؛ فهي عمياء، لا تنطق؛ فهي بكماء، لا تعقل؛ فهي بهماء، لا تتحرك؛ فهي شلاء، ولا تعبر؛ لأنها عجماء، فلا علم لها بأي شيء، ولم يمنحها الله جل جلاله القدرة على أي فعل مما يحذرون، والله سبحانه وتعالى هو السميع البصير، حكيم في أفعاله وأوامره ونواهيه، عطاؤه كلام، ومنعه كلام، وخلق كلام، يفعل ما يشاء بقدرته، ويقضي ما يريد بحكمته، عالم الغيب والشهادة، وهو الرحمن الرحيم، فمن الذي يستحق أن ينطبق عليه وصف الخوف؟، الذي آمن بالله جل جلاله وكفر بكل إله سواه، أم من كفر بالله واتخذ من الأصنام والنجوم إله!!^(٢).

الحق الساطع واليقين القاطع هو أن الذين آمنوا بالله، ولم يشركوا به هم أحق الناس بالأمن، ولو أن قومه يعقلون أو يرشدون؛ لسلموا لهذا الأمر وصدقوه، وآمنوا به واتبعوه، وهذا الحديث الذي جاء على لسان إبراهيم عليه السلام هو من توفيق الله جل جلاله له، ومن حجته التي ألهمه إياها، أو أوحى بها إليه.

٣. محاجة الملك.

إنه النمرود، الذي ملك الأرض شرقها وغربها، وكان الناس في ذلك الزمان قد

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١١/٤٨٨.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/٤٣.

ما نسبه إبراهيم عليه السلام إلى ربه، فهو بإنفاذه حكم القتل على أحد يميته، وبإيقاف هذا الحكم عن محكوم عليه به يحييه، ولكن إبراهيم عليه السلام الذي آتاه الله المحجة، وأيده بالمحجة، عدل عن النزول إلى مناقشة هذا الغباء، واختار طريق الإفحام، بالاحتجاج بأمر لا يطيقه بشر، فقال له: إن ربي يأتي كل يوم بالشمس من المشرق؛ فافعل ضد هذا أنت وأت بها من المغرب، فألجم وأفحم، وأبلس وأخرس، فكيف يكون لغبي أن يحاجج نبيًا؟! وهل يجوز لأخرق أن ينال البيروق؟! إنها حجة الله جل جلاله وتقدست أسماؤه.

أصابهم الجذب، وكانوا يذهبون إليه؛ ليأخذوا ما يحتاجونه من الطعام والشراب؛ فيمتحنهم بهذا السؤال: من ربك؟ فمن قال له: أنت ربي؛ أعطاه، وكان فيمن جاءه إبراهيم عليه السلام فسأله: من ربك؟ فجاء جواب إبراهيم كما ذكر القرآن.

وكانت بينهما تلك المناظرة، والتي ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِي نَزَّلَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّوْا فِي رَيْبِهِمْ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَإِذْ يُبْعَثُ قَالَ أَنَا أُخِي - وَأَمِيتُ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ فَأَيْنَ اللَّهُ يُأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] (١).

يذكر الله سبحانه وتعالى أمرًا عجب منه عز وجل، وذكره على سبيل التعجيب لقارئ القرآن منه، وهو أن عبدًا من عبيده، أنعم عليه وملكه على الأرض؛ فقابل هذا الفضل بالكفر بدل الشكر، وإنه ادعى الربوبية، وامتنع الناس فيها، وكانوا يجيئون لما أراد، إلى أن جاءه إبراهيم عليه السلام؛ فدعاه لما دعا إليه الناس؛ فأجابه على غير ما أراد، وبين له أنه مريب لمن يستحق الربوبية بكونه يملك الإحياء والإماتة؛ فعارض المغرور قول إبراهيم؛ بأنه يملك

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣٥/٥، تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، ٢٦/١.

إبراهيم عليه السلام وأثبت الحرام

أولاً: إبراهيم عليه السلام وإعمار البلد الحرام:

كان إبراهيم عليه السلام أمة، كما أخبر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

فقد أحيا توحيد الله عز وجل في الأرض بعد خلوها منه عند البشر، وشرق في الأرض وغرب من أجل هذا المقصد، حتى البلد الحرام في ذلك الزمان كان قد خلا ممن يعبد الله جل جلاله فيه؛ فذهب إليه بولده الوحيد، وزوجه الضعيفة، وأسكنهما في مكان قفر، ليس فيه معلم من معالم الحياة.

وجاء خبر هذا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا خَفِيَ وَمَا نَعَلُنْ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٨].

وتفسير هذا جاء في صحيح البخاري:

قال ابن عباس: (أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل عليه السلام وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء).

فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى إبراهيم عليه السلام منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل عليه السلام فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتركننا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: ألكه الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿٣٧﴾﴾ حتى بلغ - ﴿يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل عليه السلام ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا

من جرهم، أو أهل بيتٍ من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فأروا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءً، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عليه السلام عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس).

فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل آياتٍ منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأةٍ منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم عليه السلام بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل عليه السلام، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغي لنا، ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيقٍ وشدوةٍ، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عبئة بابه.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك

أقرب جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مراتٍ.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت صيد - تريد نفسها -، ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينًا معينًا).

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، بيني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقةٌ

ذلك، وإسماعيل عليه السلام ييري نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد^(١).

وهكذا بدأ إعمار البلد الحرام، إلى أن أراد الله سبحانه وتعالى أن يتم بناء المسجد الذي سيكتمل به الأعمار، والحديث عنه في ما يلي.

ثانياً: إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة:

يأتي الحديث في سورة البقرة عن سيدنا إبراهيم، وبيان فضل الله سبحانه وتعالى عليه بجعله إماماً للناس، إلى أن ذكر بناء المسجد الحرام، وعقب بعد ذلك بتكرار الثناء على إبراهيم وتأكيد إمامته، بحيث لا يقبل الله جل جلاله ملة غير الملة التي كان عليها، وأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه، وبين السبب لذلك؛ أنه قد أسلم لربه بما أمره به.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَنَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَابِرِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكْبِتِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهدٍ وشدّة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج بيتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثب عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثب عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب...، ٤/١٤٢، رقم ٣٣٦٤.

فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].^(١)

وهكذا شرف الله عز وجل إبراهيم
وولده إسماعيل ببناء أعظم بيت على وجه
الأرض، ليكون به الإعمار لأرض الله كلها،
فما من مسلم يريد الصلاة في بقعة من بقاع
الأرض إلا وهو يتوجه إلى المسجد الحرام
الكعبة.

ولم يقتصر إعمارها للبلد الحرام على هذا
الحد، بل إنه توجه إلى الله جل جلاله بهذا
الدعاء ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا
أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذه الدعوة هي التي أخبر عنها
النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه
العرباض بن سارية أنه قال: (إني عند الله
مكتوبٌ: خاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في
طيبته وسأخبركم بأول أمري دعوة إبراهيم
وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين
وضعتني وقد خرج لها نورٌ أضاء لها منه
قصور الشام)^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث
الأنبياء، ٤/١٤٤، رقم ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧٩/٢٨، رقم
١٧١٥٠.

وصححه الألباني، في تعليقه على مشكاة
المصابيح، ٣/١٦٠٤، رقم ٥٧٥٩.

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ
قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٣١﴾
وَإِذ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٢﴾ رَّبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً
لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٣٣﴾ رَّبَّنَا وَأَنْعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٤﴾ وَمَنْ
يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ
وَلَقَدْ صَاطَفَتْنِي فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ١٢٤-١٣١﴾.

قال ابن عباس: (ثم إنه بدأ لإبراهيم عليه
السلام، فقال لأهله: إني مطلعٌ تركتي، فجاء
فوافق إسماعيل عليه السلام من وراء زمزم
يصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك
أمرني أن أبني له بيتاً، قال عليه السلام: أطع
ربك، قال عليه السلام: إنه قد أمرني أن
تعينني عليه، قال عليه السلام: إذن أفعل،
أو كما قال عليه السلام: قال فقاما فجعل
إبراهيم عليه السلام بيني، وإسماعيل عليه
السلام يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].
قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ
عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام،

بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ
غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾
[إبراهيم: ٣٧].

فكانت فريضة الحج فريضة ماضية إلى
يوم القيامة من لدن إبراهيم عليه السلام إلى
قيام الساعة، ومناسكها هي مناسك إبراهيم
وإسماعيل عليهما السلام، وكان ذلك ثمرة
دعائهما، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا
مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا
مَنَاسِكَكَ وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَانْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩].

وهي التي علمنا إياها رسولنا الكريم
صلى الله عليه وسلم بقوله: (خذوا عني
مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا) (١).
وما زالت قلوب الناس تهوي لأدائها،
ويأتون لأهل هذا البلد بالأرزاق معهم،
ويجدون فيها كما نسمع ونرى في هذا
الزمان من كل الثمرات في الموسم الواحد،
وهذا كله من كرم الله جل جلاله على
إبراهيم وذريته.

والذي نراه اليوم من عمران في الدنيا كان
بدعوة منه عليه السلام، فكان محمد صلى
الله عليه وسلم هو الرسول الذي دعا بمجيئه
إبراهيم عليه السلام، وها هي أمته تعمر ذلك
المكان وقلوبها تهوي إليه، عمارة بتوحيد
الله وتعظيمه، بما علمهم إياه الرسول من
الكتاب والحكمة، وزكاهم به من تنقيتهم
من الشرك والبدع والمعاصي.

[انظر: مكة: إبراهيم عليه السلام ومكة]

ثالثاً: إبراهيم عليه السلام وفريضة
الحج:

عهد الله جل جلاله لإبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام بعد بناء بيته الحرام بتطهيره
وتهيته للقاصدين له تعبدًا بألوان العبادات،
من الاعتكاف والصلاة، ثم أمر إبراهيم عليه
السلام بعد ذلك أن ينادي بالناس لحج بيته
الحرام.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا
لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي
شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦٧﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُواكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

وقبل ذلك كان قد دعا بدعوة أجابه الله
سبحانه وتعالى بما أمره به في هذه الآية،
يقول الله جل جلاله مخبرًا عن دعوته تلك

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ٥/ ٢٠٤،
رقم ٩٥٢٤، وأصله في مسلم بلفظ: خذوا
مناسككم.

إبراهيم وذريته عليهم السلام

أ، ولاً: التبشير بالذرية الصالحة:

مضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يكافئ على الإحسان بالأحسن، وأن من ترك شيئاً من أجله؛ أن يعوضه الله خيراً منه، كما جاء في الحديث المسمى بحديث الأعرابي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاك الله خيراً منه) (١).

وقد هجر إبراهيم عليه السلام أباه وقومه؛ فأبدله بالذرية الصالحة، وجعل النبوة فيها، كما هجر العراق؛ فأبدله الله بيت المقدس ومكة، وقد جاءت البشارة بالذرية الصالحة، على كبره، وتقدم سنه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿[الصفات: ٩٩-١٠١].﴾

وهي البشارة بإسماعيل عليه السلام، ومن بعدها البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١١٢].

وقد جاء لنا وصف البشارة بإسحاق، والحالة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، والتي كانت عليها زوجته سارة عند البشارة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/٣٤٢، رقم ٢٠٧٣٩.

وصححه الألباني، في السلسلة الضعيفة، ١/٦٢ في كلامه عن الرقم ٥.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَمَخَّفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٦٧﴾ وَأَمْرًا تَهُدِّيًّا فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٨﴾ قَالَتْ يَتُولى ۗ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿هود: ٦٩ - ٧٣﴾.

وما أعظمها من نعمة، أفردها إبراهيم عليه السلام بالحمد لربه جل جلاله؛ استشعاراً منه بعظمتها عليه، حيث أخبر الله عز وجل عنه بذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَىٰ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وذلك أنها جاءت على حال عجز، وانقطاع أمل ممن هو في مثل حاله، الأمر الذي دعا سارة رضي الله عنها أن تعجب منه؛ فذكروها بأنها إرادة الله الذي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وزادوهم بالدعاء والرحمة من الله تبارك وتعالى على ما قاموا به من حق الله جل جلاله، وصبروا.

ثانيًا: النبوة في ذريته:

وجعل الله في ذريته عليه السلام النبوة والرسالة كما جعلها في ذرية نوح عليه السلام.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْمٌ مُّمْتَدِّ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقد خصه الله بالذكر في هذا الأمر في موضع آخر من كتابه حيث يقول جل جلاله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَيَّدْنَا آجُرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عددًا ممن كان من الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس فيما رواه عنه أبو هريرة رضي

الله عنه: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فمن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا) (١).

فالإجابة الأولى كانت من النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره الإيمان الذي هو ميزان التفاضل بين عامة الناس، فلما أخبر الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا ليس مقصدهم من السؤال؛ كانت الإجابة الثانية، حيث إن يوسف نبي، ابن يعقوب نبي، ابن إسحاق نبي، ابن إبراهيم النبي خليل الله -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم باعتبار خيرية الصفات التي جبلت عليها العرب بحسب القبائل وما اختصت به.

الشاهد من الحديث الإجابة الثانية التي تبين منها أن اتصال النسب بالنبوة إلى إبراهيم عليه السلام جعل حامله أكرم الناس نسبيًا، فهي ذرية طيبة من أصل طيب.

يقول الله جل جلاله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/١٤٠، رقم ٣٣٥٣.

عديدة ذكرها ابن القيم في كتابه إغاثة
اللهفان (٢) في بيان بطلان النص آنف الذكر
المثبت في توراتهم.

وقد جاء ذكر هذا الأمر في سورة الصافات
بما يجزم أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه
السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَبَشْرَنَّهُ بِعَلْمِهِ
خَلِيمٍ ﴿١١٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي
أَرَى فِي السَّمَاوَاتِ آيَاتٍ أَذْهَبُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١١١﴾
قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٣﴾
وَوَدَّيْتَهُ أَن يَبْتِرَّهَيْمُ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَفْتَ الرُّءْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ
الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحْ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَٰنَ إِزْرَهَيْمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَوَشَّوْنَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾

[الصافات: ١٠١-١١٢].

فعطف بالبشارة الثانية على البشارة الأولى
عطفاً يقتضي التغاير؛ فكانت النتيجة أن الأول
غير الثاني، وكانت الثانية مصرحة بأن المبرش
به هو إسحاق عليه السلام، أي: أن المبرش به
الأول الذي هو الذبيح هو غير إسحاق عليه
السلام، فيكون إسماعيل عليه السلام، وهو
الولد البكر لإبراهيم عليه السلام، -وعليهم
جميعاً صلوات الله وسلامه-، وهذا فيه رد

نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَهُ بِلَ وَوَمِن هَدْيِنَا وَاجْتَبَيْنَا
إِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

[مريم: ٥٨].

فهم صفوة الله من خلقه، وكانوا بعد
إبراهيم كلهم من ذريته، عليه وعليهم
الصلاة والسلام، وعلى رسولنا أطيب
الصلاة وأفضل السلام.

ثالثاً: قصة الذبيح:

الذبيح هو أحد أبناء إبراهيم عليه السلام،
وقد زعم اليهود أنه إسحاق عليه السلام،
وقد استندوا في ذلك لنص موجود في
التوراة المحرفة عندهم يقول: «اذبح ولدك
بكر، ووحيدك إسحاق»^(١)، وهو أمر
يختلف مع ما جاء في شريعتنا، وعليه فهو
مما ينبغي رده- وإن حصلت الموافقة لهم
في ذلك من بعض علماء المسلمين-، إلا
أن جمهور أهل العلم على أن الذبيح إنما هو
إسماعيل عليه السلام.

ولا يعد هذا انتقاصاً من قدر إسحاق
عليه السلام، فقد تقدم في الحديث الذي
مر آخرًا من أنه كريم ابن كريم، ولا يزعجنا
-نحن كمسلمين- أن يكون إسحاق عليه
السلام هو الذبيح -إن ثبت هذا بما يدفع
كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام-.

لكن القول بهذا الأمر مردود من وجوه

(٢) انظر: المصدر السابق.

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ٣٥٥.

على أهل الكتاب، ومن اشتبه عليه الأمر من المسلمين^(١)، حيث وقعت من بعضهم الموافقة لليهود في هذا القول^(٢)، ومن أراد التوسع في الاطلاع على مزيد من أوجه الرد؛ فليُنظر إغاثة اللفهان، وفيها من الفوائد والعبر ما سنذكره - إن شاء الله - لاحقاً.

رابعاً: الدعاء لذريته:

جعل الله سبحانه وتعالى غريزة حب البقاء، والنساء في الأثر، والتناسل والتوالد، غريزة في الإنسان، يشاركه فيها الحيوان، لكنه ينفرد عن الحيوان إذا ما أراد بهذا الأمر الحفاظ على ما خلقه الله عز وجل من أجله، وهو إعمار الأرض بالتوحيد وعبادة الله جل جلاله، وهذا ما كان عليه أنبياء الله سبحانه وتعالى، والصالحون من عباده؛ فنجد أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام لما علم بأن الله اصطفاه، واختاره لمهمة الإمامة للناس؛ أحب أن يجعل الله هذا في نسله وذريته؛ فأراد منهم أن يكونوا خالصين مخلصين لرب العالمين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤/ ٣٣١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧٩/ ٢١، زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٤٩.

[البقرة: ١٢٤].

فأرضاه الله سبحانه وتعالى، بأن بين له أن هذا كائن له في ذريته لمن قام بحقه مثل ما قام إبراهيم الذي كافأه الله به بحقه، أما الظالمون فلن تنالهم دعوته عليه السلام.

لما علم إبراهيم عليه السلام أن ذريته سيكون منهم الظالم؛ جاء دعاؤه لهم بعد ذلك يخص به الصالحين منهم، وذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه قد تكفل بالرزق لمن آمن ومن كفر، لكن تذكيراً منه لنيه عليه السلام، وبيئناً لنا، أن الذي يتوعد الله به من كفر به - وإن كان له من المتاع في الدنيا ما يغتر به - هو العذاب المقيم في نار جهنم، المكان الذي لا يملكون أن يتحولوا عنه إلى غيره^(٣).

إن من المواطن التي يرفع فيها الدعاء إلى الله تبارك وتعالى، ويقبله جل جلاله، المواطن الذي يكون العبد فيه قائماً بطاعة الله، ويتأكد هذا الأمر عندما تكون هذه الطاعة من فرائد الطاعات.

وقد كان الأنبياء أوفقه الناس بهذا؛ لذلك

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٢.

التوحيد، وتحقيق الأمن للبلد الحرام، وأن يسر الله سبحانه وتعالى لهم من يؤنسهم من تلك الوحشة من الناس، وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يجعلهم من المقيمين الصلاة، وممن امتن الله جل جلاله عليهم بإجابة الدعاء.

خامساً: وصية إبراهيم عليه السلام لذريته:

إذا شعر الإنسان بدنو أجله؛ فإنه يتفقد أحوال من يحب، وإن كان موسراً؛ فإنه يوصي لهم؛ حتى لا يدعهم عالة يتكفون الناس، فعلم إبراهيم عليه السلام ما أكرمه الله جل جلاله به من الرضا واستجابة الدعاء؛ فدعا لهم بكل خير ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذه تركته لهم، وكان يعلم عليه السلام أن الرفعة والمكانة التي أكرمه الله بها مردها إلى النعمة العظمى، التي حباه الله عز وجل بها، وهي نعمة الإسلام؛ فأثابه في عاجل الدنيا، بأن جعل الملة التي رضيها الله سبحانه وتعالى منسوبة إليه، فلا يقبل سبحانه وتعالى من عبد غيرها، ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ١٣٠-١٣١﴾.

وقد أخبره الله عز وجل أن من ذريته من سيكون ظالماً لنفسه؛ فأوصاهم بما

لما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، وأعانه على ذلك ولده إسماعيل عليه السلام؛ استجابة لله جل جلاله، استثمروا هذا المقام العظيم الذي اختارهم الله عز وجل له، وسألاً ربهما بهذا الدعاء.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧-١٢٩﴾.

ما أعظمه من نفع، قصده لمن يأتي من نسلهما، الإسلام النعمة العظمى، والمنحة الكبرى، التي تكون به سعادة الأولى والأخرى، وبيان المناسك التي يرضاها الله عز وجل، وأن يكرمهم وينعم عليهم برسول أمين، يتلو عليهم كلام رب العالمين، ويزكي نفوسهم بما تركوه نفوس المؤمنين، عليهما من الله صلاة وتسليم؛ بما أقاماه أو كانا سبباً في إقامته من الدين القويم.

وقد ذكرنا أيضاً في ما سبق ما كان من دعائه حين ترك إسماعيل وأمه هاجر عند بيته الحرام، والذي ذكره الله في سورة إبراهيم، وقد جاء فيه من دعائه، بالثبات على

يحبه لهم من الخير، وأسباب حفظ نعمة الله جل جلاله عليهم، وهي أن يكونوا على الحالة التي وفقه الله سبحانه وتعالى إليها، بأن يسلموا لله رب العالمين^(١)، ﴿وَوَصَّى بِمَا إِبْرَاهِيمُ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَنْبَغِي إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ آلَ دَاوُدَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[البقرة: ١٣٢].

وأن يظلوا على العهد الذي فارقهم عليه إلى أن يموتوا؛ ليكونوا من صفوة الله الذين اصطفاهم من عباده على العالمين، وقد صدقوه فيها؛ فكانت وصية يعقوب لأولاده أيضًا.

وقد أخبر الله عز وجل عن هذه الوصية التي أوصى بها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَتُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ لِلَّهِ وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقد ورث هذه الوصية أبناؤه، ممن هم على طريقته وهداه؛ لما عندهم من العلم بأهمية هذه الوصية، فأخذ يعقوب عليه السلام العهد من أولاده؛ بأن يكونوا على ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وأبناؤه إسماعيل وإسحاق، وهم آباء يعقوب الذي كان على ما كانوا عليه، وهذا فيه رد على

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥٠٤/٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٤٦/١.

الدرس المستفادة من قصة إبراهيم

ألا يعبد الأصنام، ووصيته لأبنائه؛
يفيدنا أن المؤمن على خطر إلى أن
يتوفاه الله على الإسلام.

١٠. أهل الإيمان والتوحيد بعضهم أولى
ببعض؛ لذلك كنا أولى بإبراهيم من
اليهود والنصارى، وكذلك أولى
بموسى وعيسى منهم.

١١. أهمية الدعاء للذرية بخيري الدنيا
والآخرة، والابتعاد عن الدعاء عليهم.

١٢. حسن البر والمعاملة مع الوالدين- وإن
كانا على غير الإسلام-، ويجب أن
يكون مقترناً بالحرص على إسلامهم،
ودعوتهم له بالحكمة والأدب؛ فإن أبر
البر أن يكون العبد سبباً في عتق والديه
من النار.

١٣. المؤمن الحق يستسلم لله في كل
شؤونه، وينقاد له في كل أموره.

١٤. أشد ما يتأذى به المؤمن، ويتألم من
أجله؛ إعراض الناس عن دين الله
سبحانه وتعالى؛ غيرة عليه، وشفقة
عليهم.

١٥. من صفات المؤمن طول القنوت
بين يدي الله عز وجل؛ راجياً عفوه
ورضاه.

١٦. من استقام على توحيد الله جل جلاله،
وأكثر من عبادته؛ هو رجل بأمة، خاصة
إذا كثرت الفتن.

١. يرفع الله جل جلاله العبد على قدر
ما يبذل في سبيله، ما استقام على
الشريعة، ولا يمكن أن ينال الرفعة بغير
ذلك، وهو بذل الجهد مع الاستقامة
على الشريعة.

٢. من ترك شيئاً لله؛ عوضه الله عز وجل
خيراً منه، لما هجر إبراهيم عليه السلام
قومه من أجل الله سبحانه وتعالى؛
اتخذ الله خليلاً.

٣. إمامة الدين لا تنال إلا بالصبر
واليقين^(١)، فإبراهيم عليه السلام لما
صبر، وكان من الموقنين؛ صار إماماً
للعالمين.

٤. من أحيا ذكر الله؛ أحيا الله ذكره، وهذا
ما رأيناه مع إبراهيم عليه السلام.

٥. حين يدعو العبد الناس لتوحيد ربهم
-أجابوه أو لم يجيبوه-؛ يكافئه الله
جل جلاله بإجابة الدعاء.

٦. أهل الإيمان أحق من في الوجود
بالأمن.

٧. أمن الأوطان لا يتحقق إلا بالقيام بحق
الإيمان.

٨. التوحيد أعظم نعم الله على العبيد.

٩. دعاء إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل

(١) انظر: الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٢٦١.

والاستجابة لأمر الله جل جلاله
مهما كلفت من ثمن.

❖ عدم إضمار الغل والغش، والحدق
والحسد لعباد الله تبارك وتعالى.

❖ أن يكون خلياً من أمراضه: التعالي
والكبر، والأشر والبطر والعجب.

٢٢. معالم الدعوة ومرتكزاتها الأساسية في
قصة إبراهيم عليه السلام:

❖ إعلان التوحيد.

❖ إنكار الشرك.

❖ البراءة من الشرك وأهله.

❖ موالاته الحق وأهله

❖ العداة لكل من عبد من دون الله
سبحانه وتعالى ولعابديه.

٢٣. هجرة البلد والأهل والعشيرة؛ إذا لم
يتمكن العبد من القيام بتوحيد ربه،
وطاعته فيها.

٢٤. التنوع في أساليب الدعوة؛ لأن الناس

ليسوا على طريقة واحدة في الفهم

والإدراك والتفكير، فيخاطب كل فريق

بما يتناسب معه من أسلوب، فالدعوة

فن؛ فينوع ما بين الحوار، والتعريض،

والدعوة إلى التبصر والتأمل، المجادلة

بالتي هي أحسن، وقد يلجأ إلى

الاستهزاء الهادف المنضبط بالأداب

السامية، فلا يكون الغرض منه

الإحراج، وإنما يكون الإيضاح وبيان

١٧. من كان موقناً بوعد الله، متوكلاً عليه
حق توكله؛ قد يغير الله سبحانه وتعالى
من أجله نواميس الكون، فالنار التي
أوقدت انتقاماً؛ صارت برداً وسلاماً.

١٨. الوفاء بمعناه الحقيقي هو أن يوفي
العبد بعهد ربه، وأن يقدمه ويقدم حبه
وحب كل شيء أمر بحبه على ما تحبه
النفس وتهواه.

١٩. التجارة مع الله هي الأربح على
الإطلاق، أتم إبراهيم عليه السلام
كلمات ابتلاه الله بها؛ فجعله إماماً
للناس، وأورثها الله جل جلاله لذريته
من بعده.

٢٠. على المؤمن أن يكون حكيمًا كريمًا،
بارًا راشدًا، شجاعًا كريمًا.

٢١. المراد بسلامة القلب: أن يقوم العبد
بما قام به إبراهيم عليه السلام من
أعمال أهله لذلك، وهي كما يلي:

❖ إنكاره للشرك.

❖ التوحيد والدعوة إليه.

❖ هجرة المنكرات وأهلها وأماكنها.

❖ الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر.

❖ الثبات على دين الله عز وجل
-مهما كانت التحديات-.

❖ تقديم حب الله على حب من سواه.

❖ تربية الأبناء على التوحيد،

بالأذان بالتوحيد، وتلبية الناس له إلى
قيام الساعة.

٣٠. بشره الله بالذرية، وأكرمه بها في وقت
هو أحوج ما يكون إليها، وأعانه على
تربيتها، جزاءً له على ترك قومه وأهله
من أجل الله.

٣١. صلاح الآباء يحفظ الله به الأبناء.

٣٢. أثر الدعاء في صلاح الأبناء عظيم،
يجدر بكل عاقل ألا يغفله.

٣٣. أنفع الوصايا وأعظمها، هي الوصية
بالثبات على الدين.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، النبوة، مكة

الحقائق، وهذه أساليب نظرية.

٢٥. هناك أساليب عملية قد يلجأ إليها
الداعية، وهي: أن يعتزل الناس
عند قيامهم بالمنكرات، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد
واللسان والقلب،-حسب المصلحة
الراجحة-، والهجران والإعراض
بالكلية.

٢٦. الجدل له آداب لا بد وأن يتحلى بها
الداعية، منها:

✪ الشجاعة.

✪ أن يكون الجدل هادفاً.

✪ إغفال المهاترات، وعدم مجازاة
الطرف الآخر فيها.

✪ إظهار النصح، وحب الخير.

✪ عدم إظهار الرغبة في قهر الطرف
الآخر.

✪ أن يكون بالدليل والبرهان.

٢٧. هجر إبراهيم عليه السلام أرض العراق
لله؛ فأبدله الله عز وجل بها خير بقاع
الأرض، وأكثرها بركة، بيت المقدس
والبلد الحرام.

٢٨. هدم إبراهيم عليه السلام الأصنام؛
فأكرمه الله جل جلاله ببناء المسجد
الحرام.

٢٩. أذن في قومه ببطلان الشرك، وتحقيق
التوحيد؛ فأكرمه الله سبحانه وتعالى

